الفصل الثاني

القرآن وبرهان النبوة فيه

ونحن قد انتهينا من الوحي وإثبات نزوله من الله سبحانه، وننتقل إلى القرآن بدراسة مفصلة.

تحديد معنى القرآن:

القرآن في الأصل: مصدره على وزن فُعلان «بالضم» كالغفران والشكران، ثم صار «عَلَماً» لذلك الكتاب الكريم، وفي تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما سمي كتاباً كونه مكتوباً بالأقلام... وفي تسميته بهذين الاسمين بيانٌ بأن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا موضع واحد، أي أنه يحفظ في الصدور والسطور جميعاً، وقد بيَّن الله حفظه عكس الكتب الأخرى المنزلة التي لم يذكرها الله سبحانه بذلك الحفظ، إنما استحفظ عليها الناس فلم يحفظوا: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 44].

هل هو من عند الله؟

وإذا كان محمد ﷺ قد شهد بأن الكتاب ليس منه، وذكر بأنه كتاب الله سبحانه أنزله إليه: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: 52] كان لزاماً أن يُصدق في ذلك، دون أن يطالب ببينة أخرى، ما دام هو ﷺ، الصادق الأمين

الذي لم يكذبه حتى أعداؤه . . . . ترى لو أن إنساناً عثر على كنز ثمين، ثم أداه بأمانة وسلمه بحذر ويقظة إلى أهله أو إلى من يؤتمن على تعميم منافعه وتوزيعه على المستحقين، مبرئاً نفسه من أي جهد في محاولة العثور عليه، أو تغييره، أو الزيادة عليه، أو انتقاصه، سلمه كذلك دون أن يطلب على عمله جزاء ولا شكوراً. . . أيصدق ذلك الإنسان، ويستلم منه الكنز، وينتفع به، ثم يصرف مأجوراً مشكوراً؟ أم يحاكم ويطالب بالأدلة والبينات والوثائق والشهادات التي تثبت عدم كون الكنز من ممتلكاته؟، ثم يهمل الكنز، أو تشغل الأيام، وتقضى الشهور والأعوام في كشف ما فيه، وملابسات العثور عليه، وسمات من عثر عليه وأخلاقه ليتوصل إلى إثبات حق صاحب الكنز المذكور ومصدره؟.

أما وقد غزا الشك فكر بعض من يسمَّوْن بالمثقفين فنحن مضطرون إلى الطريق التحقيقي الأخير لإثبات أن القرآن تنزيل من حكيم حميد، فإذا كانت القلوب المؤمنة لا تجد حاجة إليه تجاوزته، وذلك لقطع الطريق أمام من يحاول بث الشبه في العقل باسم الموضوعية، والنقد العلمي، والتحليل التاريخي. فإذا ما تحقق لدينا إعجاز القرآن للناس تأكد لدينا كونه وحياً من الله سبحانه. . ومن الكتب التي نقضت الشبهات عن القرآن كتاب: «نقض مطاعن الرهبان» لكاتبه د. «صلاح عبد الفتاح الخالدي»، فليراجع.

المعجزة: نظرة تاريخية:

نحن لا نزال نعيش عصر المعجزات!، قد تقول نعم، ولكن معجزات عصرنا تختلف عن المعجزات التاريخية وتتفوق عليها قوة، ودواماً، فقد وصلنا الفضاء، وعلمنا تركيب الذرة، و. . . . . إلخ. ولكن ائذن لي أن أبين لك مرادي من كلامي، إذ أني أرى أن الإنسان المعاصر معجَز «بفتح الجيم» أي عاجز، لكونه يواجه كل ساعة، ويوم، وعصر، معجزات شتى يستسلم لها

صاغراً وقد لا يأتي مؤمناً!، فهو عاجز عن خلق الحياة، ودرء الموت، وإستشفاف الغيب كلّه، والنفوذ من أقطار السمٰوات والأرض، والقوي من الناس يعجز الضعيف ولو إلى حين، إنه «معجز وليس» معجزاً، بفتح الجيم لابكسرها!. . . . وزيادة على مواجهته لهذا الإعجاز الكوني والحياتي والغيبي، فإنه يواجه إعجازاً آخر من نوع مختلف في مجال حياته الإرادية، إنه: إعجاز القرآن الذي يتحدى دوماً أن يؤتى بمثله أو يؤمن به! فلنذكر تفصيلاً معجزة القرآن.

اتفق العلماء المسلمون الذين تدبروا القرآن على إعجازه، وقد بينوا ذلك الإعجاز وفق مستواهم، وتخصصهم، ومفرداتهم اللسانية واللغوية، ورؤيتهم العصرية، وأمور دراستهم للقرآن، وكان مما ذكروه من وجوه الإعجاز، بيانه البليغ، وعدم ضعفه بتكرار المذكور والقصص، وإخباره بالأمور الغيبية، وصدقه في نقل الحق من الماضي، وعدم سأم السامع أو القارىء من سماعه وقراءته، ويزيد الزركشي في «البرهان» على ما ذكرنا وبلسان عصرنا تأثر السامعين به ولو كانوا غير مسلمين، وبقاء تأثيره النفسي رغم تبدل الشعور، ومناهج التأليف، وجمعه بين خطاب النفس وخطاب العقل، ويزيد «الرماني» عليها: إخباره بأمور المستقبل، وترك التحدي من قبل المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، بينما رأى بعضهم على البعد الإعجاز العلمي في القرآن رغم قلة الكشوف العلمية في ذلك العصر: «إنّ الأحكام معللة بعلل وموافقة مقتضى العقل، جعل هذا وجهاً من وجوه الإعجاز وجعل هذه الطريقة دلالة فيه، كنحو ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها، ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة تستحسن»[1].

---

(1) إعجاز القرآن، للباقلاني، ج 1، ص: 71.

obeikandi.com

وجهات نظر أخرى في إعجاز القرآن

1 - القرآن.. وترتيبه التوقيفي:

حين تأخذ المصحف بيدك تتلو آياته، وينتقل بصرك بين سوره، فإنك واجد نفسك أمام ظاهرة في سوره، وآياته، بل بين كلماته، وحروفه، وهي أنه كتاب أُحكمت آياته، فلا تكاد ترى أي تفكك بين أجزائه، مع نزول آياته في أوقات متعاقبة. متقاربة أو متباعدة، . . . فإذا علمت بأن القرآن قد نزل منجماً في بضع وعشرين سنة، سور تنزل، وآيات تتلوها آيات، وأن النبي محمداً ﷺ لم يرتبها بعد كمال نزولها وفقاً لتاريخ النزول، أو حسب ما تبينه الآيات والسور من تفسير متشابه أو مترابط، أو لأمور فنية أو صوتية، إنما كان ﷺ يرتب الآيات والسور فور نزولها، فيضع هذه الجملة في نهاية السورة الفلانية التي نزلت من قبل، ويأمر بإدخال هذا النجم القرآني بين ثنايا سورة معينة محصوراً بين عدد معين من الآيات التي تتقدمها وتعقبها، ويجعل هذه الآيات افتتاحية لسورة لما تنزل بعد، . . إذا علمت ذلك كله أيقنت أن القرآن كتاب الله سبحانه، وإلا فهل سمعت بكاتب يستطيع أن يعلم ما سيقوله من كلام في المستقبل، ويضع منهاجاً تفصيلياً لكتبه، ومواضيعها، ومناسباتها، وفصولها، وأبوابها، قبل أن تحدث الوقائع الحياتية التي تدعوه لإنشائها وإبداعها، حتى إذا صدر منه نثر أمر بوضعه في مكان ما من جسم تلك الخطة والمنهاج التأليفي المقترح؟.

وحتى إذا ما افترضنا وجود مثل ذلك الكاتب والكتاب، ترى أيكون مشروعه الكتابي متسق البيان، مترابط الأفكار، متصل المقاطع، مسلسل الحلقات، متساوق الألفاظ؟ إن غاية جهد المؤلف أن يقوم بتنظيم ما كتبه بعد

obeikandi.com

إكماله وتشكله من خلال مجمل الأحداث والوقائع الكونية والحياتية والإنسانية التي تؤثر فيه شاء صاحبنا أم أبى، والتي يجهلها كل الجهل، أما قبل ذلك الاكتمال فلا يمكن أن ينشأ ترابط أو تناسق لفظي وعلمي بين المكونات المختلفة الناشئة في ظروف زمانية ومكانية ونفسية متباينة لا يمكن التنبؤ بها، وذلك لأنه ليس له علم مقدم بما سيأتي به الغيب من أحداث ووقائع، وما سيكون رد فعله وموقفه منها، وكلامه ورأيه فيها، وتناسق أجزاء ذلك الكلام الكثيرة الصادرة في سائر المناسبات التي تستدعي منه الكلام أو الكتابة، ومدى تكون كل محكم من تلك الأجزاء المبعثرة أو الجمل المسطرة، وإذا حاول أحدهم ذلك وجمع ما سيقوله ابتداء، اعتباطاً، أو اجتهاداً، فإنه عاجز عن إخراج وحدة علمية بيانية متكاملة، إنما يخرج لنا تركيباً كلامياً تتنافر وحداته العلمية، وقد تتناقض مقاطعه الصوتية، ويفقد بذلك وزنه العلمي والبلاغي.

وفي عالم الخلق فإن من يقدم على صنع جهاز متكامل يحضر المادة الأولية لصناعته بادىء ذي بدء، ويعد في فكره خطة تصميم ذلك الجهاز وصنعه وكيفية عمله، ويستحضر في فكره منافع أجزائه وعلاقات بعضها مع البعض ومؤثرات الوسط عليها، وكيفية ضمان عملها وصيانتها... ثم يباشر عمله وينتج آلته... ثم يرفقه بجدول يعين المستعمل له على تركيب أجزائه، وذلك بترقيم كل جزء في مصور لتلك الآلة، وبيان اسمه وموقعه ضمن الآلة، بحيث إذا قام المستهلك بتركيب تلك الأجزاء وفق النشرة المرتفعة أكسب الآلة شكلها التام المنتظر وانتفع هو بمزاياها... أما إن جاء إنسان ورقم تلك الأجزاء المصنوعة من قبل غيره، وشكلها وربط بينها بدون علم سابق ودون أن تكون لديه فكرة عن النفع النسبي لكل جزء، ودوره في عمل الجهاز وما سيؤول أمر تلك الأجزاء المرتبة، والشكل الذي سيتكون من ذلك الترتيب ومدى تأثير الظروف الزمانية والمكانية على عمله، وإلى أي حد تترابط تلك

الأجزاء الآلية برابطة التشاكل، والتعلق، والانجذاب، والانسجام والتآلف... ثم خرج من يده وفي أول محاولة، بنيان حسن التقاسيم، ملائم النفع، متناسق المباني، كثير الدلالة، فلا يمكن تفسير محاولته إلا بإدخال شيء طارىء يسد هذا الفراغ الفلسفي في القضية بحيث يغدو دور ذلك الإنسان مجرد دور القائم بتفعيل تعليمات نزلت إليه حول الموضوع ممن هو أعلم.

وكذلك كان في عالم الأمر شأن محمد ﷺ مع القرآن، لذا قال العلماء بأن ترتيب القرآن توقيفي لا اجتهادي، فلقد جمع القرآن المنزل في ظروف زمانية مختلفة... ومع كل ذلك عجز الآخر أن يلحظ فيه تنافراً أو تفككاً، وأيس المتذوقون أن يجدوا فيه اختلافاً أو تعارضاً؛ فهو كتاب محكم، لم يفقد على الدهر إعجازه، فالآيات تتوالى في القرآن ولا تختلف مع ما يحيط بها ويتقدمها ويتأخرها بتفصيل وإحكام، يقول الأديب الرافعي رحمه الله في ذلك:

«الحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها، ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية، وفوق ما يتسبب إليه الإنسان.. وما أنزله إلا الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض»[1].

2 - كتاب بلا مصادر:

إن العلماء في كتاباتهم وكتبهم متأثرون ولا بد بمن قبلهم، فإما أن يسيروا على منوالهم أو أن يصوّبوا بعض آرائهم، وأياً كانوا فإنهم يجمعون كتابتهم من مصادر العلم في وسطهم، فلقد كون كلّ كاتب فكره بالأخذ مما ذكره السابقون وتوصلوا إليه من نظريات وصور وآراء عملية أو أدبية أو فنية،

(1) تاريخ آداب العرب، للرافعي، ج2، ص: 260.

openkanz.com

بعد مدها بخصائصه وميله وذوقه وتوجهه، وقابلياته الموروثة، وحصيلة علمه المكتسب، حتى أن أبرز المدارس الفلسفية والعلمية والأدبة والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفنية المعاصرة قد تشكلت بعد مساهمات إنسانية تاريخية متلاحقة، وتداخل مواهب متنوعة، وكل ذي فكر أو أدب أو فن من المحدثين إنما يستهدي بإحدى هذه المدارس في إغناء عقله أو شعوره، ووضع فكره وعبقريته ونفسه في إطارها، وهو إن جدد وأبدع فإنما يجدد في فرع أو جزء من فروع العلم... أما إن رأينا كتاباً فيه علم سابق للزمن، كاشف للماضي المخبوء، مظهر لبعض الغيب المستور[1]... منزل على رجل أمي، فلا بد أن يكون ذلك الكتاب معجزاً خارجاً عن إمكانية الإنسان.

3 - الصدق

إن الكتب مهما امتازت بالقدر العلمي والصدق فإنها لا تكاد تخلو من الأخطاء العلمية والمسلمات العصرية التي يثبت خطؤها بتقدم العلم، أو تقادم الزمن، أو لتوصل مؤلفيها إلى أمور جديدة، أو لوجود أخبار فيها لم تحقق الأيام صدقها وتنبؤات لم تثبت الوقائع المستقبلية صوابها... أما القرآن فلا تجد فيه إلا الصدق؛ فهو لا يقبل «تنقيحاً» ولا يتحمل زيادة، وليس في أجزائه همل يستحق حذفاً، أو مقطع يحتاج تغييراً أو تحويراً، فصدقه دليل إعجازه. فقد روجعت سائر الكتب البشرية، وزيف كثير من نظرياتها، وعورضت وكشفت أخطاؤها، بل عفى على أكثرها الزمن وأخذت طريقها إلى رفوف المكتبات وزوايا المتاحف. بينما نرى القرآن إلى الآن علياً يعلو ولا يعلى عليه، يتحدى ويبطل التحدي، يتسم بالصدق والعدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115].

---

(1) سنذكر أمثلة على ذلك فيما بعد.

obeikandl.com

4 - الحكمة

مهما حاول الإنسان مغالبة شعوره وميله وضعفه وعجلته أثناء الكتابة، فإنه يعجز عن الانفكاك عنها لكونها من لوازم بشريته، فتراه يتسرع ويتجاهل بدافع من عجلته كثيراً من الأمور، أو تلمح في كتابته روح الانتصار لجماعة ينتمي إليها ويميل معها حيث مالت، وتجده أحياناً يدّعي العلم، ثم تجده واهناً يلتقط أنفاسه لاصطدامه بجدار الغيب الصلب، معترفاً بعجزه ومحدوديته وقلة علمه، واعداً وممنياً نفسه وقارئه بما سيصل إليه العلم في المستقبل من أمور، وإذا ما كان الكاتب صاحب دعوة يتعامل مع الناس وفق ميزان أقرب إلى الثبات فكثيراً ما تحس به في كتابته متألماً من قلة النصير، أو غدر الصديق، أو عدم مواتاة الظروف، أو قلة استواء مخاطبيه. وكأنك تقرأ فيه زفرة تضجُّره وألمه ونفثةُ حسرته. . . ولا يكاد يخلو كتاب من مثل هذا النقص. . . بينما ترى القرآن من أوله إلى آخره لا يضره أذى الناس، يدعو إلى الصبر الجميل، ويحمد الثبات الذي لا يرتد، لا يضعف خطابه بفعل الطوارىء والظروف الكونية والحياتية، فالقرآن روح من عالم الأمر، وليس كذلك عالم الناس وما يكتبون.

5 - خطاب الحق

لا تخلو الكتب الأدبية من آثار الخيال، ولا تتجرد الكتب العلمية من الجفاف، بينما نجد بعض الكتب موجهة للإثارة وخطاب الهوى. أما الفلاسفة فإنهم قليلاً ما يمتعون أو لا يكادون يفقّهون، فالمؤلف الإنسان لابد وأن تغلبه سمته أثناء الكتابة مهما حاول الكمال. ويبقى القرآن مهما تطاولت السنون هو الحق كله، وليس ذلك من شأن كتابة الإنسان في الأقل لمداخلة الظن فيه.

6 – التأثير الدائم:

الكتب الإنسانية تفقد تأثيرها في القرون التالية لمؤلفيها مهما اتسم أولئك الكتاب بالإصابة، وذلك لاستعمالهم كلمات وجمل من لغة العصر، وحين تزول الملابسات الوقتية التي ساهمت في إضفاء التقدير على كتابة كاتب وتبدل الذوق وتغير الخطاب اللغوي واللساني فإنه يفقد تأثيره إلى حد كبير، ومهما كان الفكر أو الشعر أو العلم - كما يقال - عالمياً وإنسانياً، فإن تفتح الآفاق، وتوسع العلم وتقادم العصور، كفيلة بتجريدها من كثير من قوة اكتساب التأثير الدائم والتوجيه المستمر، وليس كذلك القرآن الذي بقي يهدي الناس.

7 – من إعجاز القرآن:

الحسن الصوتي

فالحركة والسكون فيه كما يقول الدكتور «محمد عبد الله درّاز» تجدد: «نشاط السامع لسماعه، وكذلك حروف المد والغنة تساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آناً بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى».

و«القرآن أعذب من الشعر والموسيقى، فالقصيدة الشعرية تجري على وزن معين، والقطعة الموسيقية تتشابه توقيعاتها وتتقارب على لحن معين. بينما الوحدة القرآنية لا القرآن كله أي السورة الواحدة مثلاً: «تصويت» متجدد لا يمله السامع كما يمل القصيدة الشعرية والقطعه الموسيقية، وذلك شأن الله».

«تجد بياناً قُدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحسّ فيه بتخمة

الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية (نقية) لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها و(وافية) لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه».

خطاب العامة وخطاب الخاصة:

«إن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته. فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد»: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

إرضاء العقل وإمتاع النفس:

«في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير وقوة وجدان «نفس» وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً، فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟.

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء والأدباء والشعراء فما وجدنا هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلواً في جانب وقصوراً في جانب؛ فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك

واختلاب عاطفتك، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعري ونبو عن الطباع. وأما «الشعراء» فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك وتحريك أوتار الشعور من نفسك فلا يبالون بما صوره لك أن يكون غياً أو رشداً، وأن يكون حقاً أو تخيلاً، فتراهم جادين وهم هازلون، يستبكون وإن كانوا لا يبكون، ويُطربون وإن كانوا لا يطربون: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء: 224-225]... فالذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره... وإن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع بين يديك هذين الطرفين معاً كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر ولا هو سنن الله في النفس الإنسانية»[1].

البيان والإجمال:

«إن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو إلى اللغو الذي لا يفيد ولا يكاد يجمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد»، بينما القرآن الكريم يبين ويجمل، وكمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212] ذلك أن: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تحمل معاني ودلالات كثيرة قد يكون معناها أن يتصرف في تقدير أرزاق الناس بغير حساب، من غير أن يحاسبه أحد على عمله، أو أنه تعالى يرزق كيف يشاء بغير تقتير أو محاسبة لنفسه على الإنفاق أو خوف، أو أنه تعالى يرزق من حيث لا ينتظر أو يحتسب. أو أنه يرزق كثيراً لا يدخل

(1) النبأ العظيم، محمد عبد الله درّاز، ص: 97 - 111.

ضمن إحصاء، أو أنه يرزق بغير معاتبة ومناقشة له على عمله من قبل أحد..»[1].

ومن إعجاز القرآن:

أ - أن القرآن يبيِّن لنا أموراً بأوسع وأحسن وأحب بيان مع التناسق بين كلماتها وتفسيرها بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا تناقض بين الصدق والحسن: «ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد كما يدرك ذلك من يزاولون «فن التعبير» فعلاً، لأن هؤلاء، هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال».

«إن النص الواحد يحوي «مدلولات» متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات، وكل قضية تنال الحيز الذي يناسبها، بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضوع الذي استشهد فيه، وكأنما هو منزل ابتداء لهذا المجال وهذا الموضوع!

وكذلك «استحضار المشاهد والتعبير المواجه كما لو كان المشهد حاضراً بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر ولا يملك الأداء البشري تقليدها، لأنه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة».

مثال: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: 19] وإلى هنا أمر يوجّه ورسول يتلقى.. ثم فجأة نجد الرسول ﷺ يسأل القوم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19] وإذا به يعود

(1) النبأ العظيم، للدكتور محمد عبد الله دراز، ص: 97 - 111.

obeikandi.com

للتلقي في شأن هذا الذي سأله عنه قومه - وأجابوه ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

وهو أسلوب «خطاب» متميز تماماً عن الأسلوب البشري، وإلا فمن شاء أن يماري فليحاول أن يعبّر على هذا النحو، ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم، فضلاً على أن يكون هذا «الحسن» الرائع، وهذا الإيقاع المؤثر، وهذا التناسق الكامل.

ب - إعجاز الموضوع:

القرآن لا يخاطب فكر الإنسان المجرد مرة، وقلبه الشاعر مرة، وحسه المتوفز مرة، ولكن يخاطبه جملة، ويخاطبه من أقصر طريق، . . . وينشىء فيه تصورات وتأثرات وانطباعات ليس بوسع الخطاب الإنساني أن ينشئها فيه.

1 - يعرض الحق: «كما هو في عالم الواقع ومن كل زواياه، وكل جوانبه، وكل ارتباطاته، وكل مقتضياته. . . وهو مع هذا الشمول لا يعقد هذا الحق، ولا يلفه بالضباب! بل يخاطب به الإنسان بكل مستوياته. ولا يملك الخطاب البشري هذا، فكل كاتب يخاطب مستوى معيناً ولا يكاد غيره يفهم عنه».

2 - «بكونه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات «العلمية» والتأملات «الفلسفية» والومضات «الفنية» جميعاً. . فهو إنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب ويتصل فيه «حق» الكون والحياة والإنسان بحق الألوهية، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى. . . في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده، لأن الأسلوب البشري عندما يحاول تقليده في هذه الخاصية تبدو فيه الحقائق مختلفة مضطربة غامضة غير واضحة ولا محددة ولا منسقة كما تبدو في المنهج القرآني. . . .».

3 - بكونه مع الحق الذي يبينه: «يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبه في الكل مساحته» التي تساويه في القدر، ومنها كما يبين سيد أمور الألوهية والربوبية والعبودية... وعالم الغيب بما فيه والدار الآخرة، والإنسان والكون والحياة. كل أمر يأخذ حقه في هذا الكتاب بلا زيادة أو نقص، والإنسان ليس بوسعه أن يقيم هذا الميزان.

4 - «الحيوية» في القرآن وإحياؤه للإنسان مع الحق.. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24].

5 - القرآن يبيِّن أموراً: هي مما لا يفكر فيه أو لا يلتفت إليه على هذا النحو، وكمثال على ذلك قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

فمن ناحية الموضوع: «أنّ الفكر البشري - حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع، موضوع شمول العلم وإحاطته، لا يرتاد هذه الآفاق.. إنّ مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود. إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته، فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر في كل أنحاء الأرض!؟. إن المسألة لا تخطر على الفكر البشري ابتداءً، ولا يخطر على باله أن يتجه مثل هذا الاتجاه، ولا أن «يعبر» هذا «التعبير» عن العلم الشامل! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق.. وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59] إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم، فأما التحدث عنه كدليل للعلم الشامل فهذا ليس معهوداً في اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك!

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة، وكل حبة مخبوءة، وكل رطب

obeikandi.com

وكل يابس في كتاب مبين، وفي سجل محظوظ فما شأنهم بهذا؟ وما فائدته لهم؟ وما احتفالهم بتسجيله؟ إنما الذي يحصيه «ويذكره» هو صاحب الملك الذي لا يند عنه شيء في ملكه.... الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59]، آماد وآفاق وأغوار في المجهول المطلق في الزمان والمكان، وفي الماضي والحاضر والمستقبل، وأحداث الحياة وتصورات الوجدان، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 59] آماد وآفاق وأغوار في «المنظور» على استواء وسعة وشمول. تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ حركة الموت والفناء، وحركة السقوط والانحدار من علو إلى سفل ومن حياة إلى اندثار ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾، حركة البزوغ والنماء المنبثقة من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ «الخلق» الشامل الذي يشمل الحياة والموت، والازدهار والذبول، في كل حي على الإطلاق. ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ «الخلق» الشامل الذي يشمل الحياة والموت، والازدهار والذبول، في كل حي على الإطلاق. فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق؟ من ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال«الحسن»؟ من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك كله، في مثل هذا النص القصير؟ من؟ إلا الله؟!.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبإ: 2] ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء والحركات

والأحجام والأشكال والصور والمعاني والهيئات لا يصمد لها الخيال. كم من شيء يلج في الأرض؟ كم من حبة تختبىء في جنبات هذه الأرض؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية؟ كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز، ومن إشعاع كهرباء تندس في الأرض في أرجائها الفسيحة؟ وكم وكم مما يلج في الأرض، وعين الله لا تنام؟! وكم يخرج منها؟ كم من نبتة تنبثق؟ وكم من نبع يغور؟ وكم من بركان يتفجر؟ وكم من غاز يتصاعد؟ وكم من مستور ينكشف؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور؟ وكم وكم مما يرى ومما لا يرى ومما يعلم البشر ومما يجهلونه وهو كثير؟! وكم ينزل من السماء؟ كم من نقطة مطر؟ وكم من شهاب ثاقب؟ وكم من شعاع محرق؟ وكم من شعاع منير؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد؟ وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر؟ وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله؟ وكم مما يعرج فيها؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستترة لم يسمعها إلا الله في علاه؟ وكم من «روح» من «أرواح» الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة؟ وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله؟ وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله؟ ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر؟ ومن ذرة غاز صاعدة من جسم؟ وكم وكم ما لا يعلمه سواه؟ وأن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر، فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر «بطبيعته» على قلب بشر، ومثل هذا التصور الكوني لا دافع إليه من «طبيعة» تصور البشر، ومثل هذه الإحاطة باللمسة الواحدة تتجلى فيها صنعة الله بارىء هذا الوجود التي لا تشبهها صنعة العبيد!»[1].

(1) الظلال: ط 5، سورة يونس، ص: 153 - 162. بتصرف قليل.

8 - الإعجاز العددي:

تلك الحروف المقطعة التي ذكرت في أوائل بعض السور والتي كانت كما يقول الدكتور محمد غلاب: «من النواحي القرآنية الخفية الهامة التي أهاجت غريزة حب الاستطلاع عند المستشرقين، وأثارت في نفوسهم رغبة البحث في القرآن، ودفعت فضولهم إلى تعقب أسراره ومخبوءاته»(1)، وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى كلها تبعد عن الحق الذي انكشف علمياً وإحصائياً في السنوات الاخيرة.. فقال «نولديك» في كتابه «تاريخ القرآن»: إنها رموز لمجموعات صحف القرآن قبل جمعه؛ فالنون رمز لمصحف عثمان، والميم رمز لمصحف المغيرة.. وهكذا أيده «هيرشفيلد وبول» في دعواه، بينما أنكر «لوت وبوير» ذلك الادعاء، أما «بلاشير» فقد تجنب تلك المزالق قائلاً: «إن أتقياء المسلمين الذين رأوا من العبث محاولة سبر أغوار هذه الأسرار كانوا وحدهم هم الحكماء»(2)، وقد دافع علماء المسلمين عن القرآن وحاولوا تفسير الحكمة من تصدير بعض سوره بحروف مبهمة ورموز، فقال السيد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير المنار: «من حسن البيان وبلاغة التعبير التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير أن ينبه المتكلم المخاطب إلى مهمات كلامه والمقاصد الأولى بها... ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا لا يفوته شيء منها، وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه، وأداة الاستفتاح، فأي غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان ومنه ما يقع أثناء الخطاب من رفع الصوت وتكييفه بما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر، أو غنة الاسترحام والعطف، أو رنة النعي وإثارة الحزن، أو نغمة التشويق والشجو، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع، أو صخب

---

(1) نظرات استشراقية: د. محمد غلاب، ص: 43.

(2) المصدر السابق نفسه.

التهويش وقت الخيل، ومنه الاستعانة بالإشارات وتصوير المعاني والحركات، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة أو وضع خط فوقها أو تحتها»[1]. بينما رأى أحد المفكرين المسلمين هذه الحروف المقطعه من البراهين على تنزيل القرآن من الله سبحانه؛ فيقول مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه[2]: «نحن نخطىء الفهم حين نقول بأن رموزاً كهذه يمكن أن تدخل في مفهوم أمي، في تلك الحالة الخاصة التي تسمي حالة (التلقي) فهل الأمر مجرد اختلال في شعور اضطراب موقتاً؟.. أو أن من الجائز أن يكون مرضاً عضوياً أصاب الجهاز الصوتي، وهو ما يسمى لدى علماء الطب؟... ولكن النبي ﷺ كما رأينا في المقياس الأول يمثل أكمل المعادلات الشخصية في نواحيها الثلاثة: «الخلقية، والعقلية، والبدنية» ولم يدع التاريخ أدنى ريب في هذه النقطة، فلا مجال إذن لأن نتخيل أي افتراض عن «الشخصية» المحمدية حتى نشرح هذا الإبهام وذلك المرض العضوي، ومن جهة أخرى لسنا نجد في أدب هذه الذات الشخصي الغني وهو (الحديث) أي أثر لتلك المغلقات، ولا توجد أية رواية مشافهة عن النبي ﷺ مشتملة على مثل هذا التصدير الرمزي».

ثم إنك تجد في القرآن براهين عددية، وهي حجة على كونه تنزيل الذي يعلم السر وأخفى، ومن بعض ذلك:

إن لفظة الحياة ومشتقاتها ذكرت 145 مرة، وكذلك لفظ الموت ومشتقاتها.

وإن لفظة الدنيا ذكرت 115 مرة، وكذلك لفظة الآخرة.

الملائكة 88 مرة، وكذلك الشياطين.

---

(1) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص: 145.

(2) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص: 273 - 274.

المصيبة 75 مرة وكذلك الشكر.

الزكاة 88 مرة وكذلك البركة.

الصلاح 50 مرة وكذلك الفساد.

الصالحات 167 مرة وكذلك السيئات.

ذكرت الشهور 12 مرة وكذلك السنة 12 شهر.

ذكر اليوم 365 مرة وكذلك هي أيام السنة.

فهل يؤلف أحد كتاباً بكلمات تحتوي على معدلات ونسب وأرقام رياضية؟. هل فعل مثل هذا أحد في التاريخ الغابر أو المعاصر؟ ولماذا يفعله؟ وكم ستكلفه محاولة ذلك من وقت وجهد إن أقدم عليه؟ وإذا ما فعل ذلك أحد فهل يمكن أن يفعله رجل مثل محمد ﷺ الذي لم يكن يملك حتى حق النوم المسترسل المريح؛ إذ كان قيام الليل للعبادة من المفروض عليه، وكانت قدماه قد تورمتا من كثرة القيام، فضلاً عن شغل نهاره بالجهاد والدعوة والتزكية والعبادة، وأداؤه لحق نفسه وأهله وصحبه في الحياة اليومية وما تأخذه من وقت وطاقة فكر وجسد وشعور.... وإذا ما قلبنا صحائف التاريخ علمنا منها أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة بل نزل مفرقاً على مدى «23» سنة، وكانت هناك آيات تنزل من بين سورة معينة أو من أولها أو من آخرها فتوضع في مكانها المعين، وقد لا تكتمل السورة إلا بعد أمد، تأكد لدينا استحالة كون هذا التوزيع العددي في القرآن من تفكير محمد ﷺ وتأليفه... وهو الذي نشأ في أمة قال عنها: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»[1]، وكان يستعين بالكُتّاب في كتابة كل ما يحتاج إليه في أمور حياته الخاصة والعامة.

---

(1) حديث صحيح، رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي: «لا نكتب ولا نحسب» برقم: 1913، ومسلم برقم: 1080.

9 - إعجاز التزكية:

إذا ما قارنا بين الحالة الخلقية للعرب قبل أن يعمل القرآن عمله في القلوب وبعده لوجدنا تفاوتاً كبيراً، فما زال القرآن يرفع الخط البياني للنفس حتى أوصلها إلى الدرجة التي لا درجة فوقها ولم يبلغ أحد ذراها، ونحن بذلك لا ننكر فضل مكارم النفس العربية ومعادنها وأثر العوامل المساعدة، ودور النبي ﷺ في هذا المجال لأن أية عملية تزكية لا تتم ولا تفلح إلا بوجود مكونات إنسان + وسط مساعد + منهاج سليم + رجل مصلح.. ولكن لا جدال في تميز أثر القرآن في الكمال والسرعة، والديمومة، ثم إن الرسول ﷺ على ما امتاز به من خصائص كان يتخلق بأخلاق القرآن ويهتدي بهديه في التزكية... لقد كان القرآن وحده دون الاستعانة بأية مكونات أخرى محلية أو خارجية قد أنشأ ذلك القرن الممتاز وبتوازن وتعادل وقوة وإعجاز... والتاريخ يشهد أن الفلسفة كلها والتجارب التربوية جميعها، والعلوم النفسية قاطبة، والفلسفات الأخلاقية على اختلاف مناهجها، لم تنشىء مثل ذلك القرن في سلامة تفكيره وخلقه وتزكية نفسه وكمال تربيته وتوحد صفه. أما غير القرآن من المذاهب والفلسفات والمناهج فإنها: «إن هي أغنت في قليل لم تغن في كثير، وإن أقنعت العقل لم تبلغ من القلب مبلغاً»(1). وكان ما أرادته أماني وإنشاء من المخيال لم يؤثر على الناس ذلك التأثير خاصة في الأطفال والأحداث..

(1) إعجاز القرآن، الرافعي، ص: 104.

10 - عجز قوة البيان العربي عن قبول تحدي القرآن حجة على إعجازه:

ثبت تاريخياً أن القرآن قد تحدَّى معاصري نزوله، بل الناس أجمعين أن يأتوا: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: 23] ولم يطلب منهم حتى المماثلة الكاملة بين ما يأتون وبين ما يُتلى عليهم من سور القرآن، بل اكتفى بأن تكون تلك السورة التي يؤلفونها من مثل سورة القرآن وشبيهة بها، فعجزوا، مع أنه القرآن أذن لهم بمجال وقتي؛ إذ كان يمر وقت مناسب بين تنزل سورة وأخرى يكفي لأن يجتمع شعراء المعارضة - وهم أصحاب البيان - لينشؤوا تراكيب وقطعاً شعرية مؤثرة مستمدة من واقع الوسط المعاصر واهتمامات الناس وميلهم وشعورهم، ليصرفوا الآخر عن التأثر بالقرآن تباعاً أثناء التنزيل على مكث، كان بمقدورهم ذلك ولا شك كما كان من مقتضيات حربهم المستعرة مع القرآن، وقد يكون لعمل شعري أثره بأكثر مما تفعله الدعاية المفتقرة إلى الصدق، فلم ينزل القرآن جملة واحدة ليكون لهم وجه من العذر في الادعاء بعدم القدرة على مواجهته لكونه واجههم كلّاً ولا قِبَل لهم بذلك في وقت قصير، وأنهم لا يقرؤون كثيراً، ولا يتدارسون الفكر، وليست لهم دور بحث ونشر وجمع معلومات، ولكن لماذا لم يحاولوا وهم من كان يفخر بالعزة والكبرياء والغيرة والحمية والشاعرية، وكان الكلام صناعته وهوايته؟..

إن تحدي القرآن قد أسكت المعارضة عن البيان والرد، وكان ذلك كفيلاً بهدم تراثها وعقائدها وبنيتها الاجتماعية والسياسية والمالية، وقطع الرابطة العميقة بين ماضيها، وحاضرها، ومستقبلها! يقول أبو بكر الباقلاني: «إن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد، لا سيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجيء، مع خلع «آلهته» وتسفيه رأيه في «ديانته» وتضليل «آبائه»، والتغريب عليه بما جاء به، وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته

والتصرف على حكم إرادته، والعدول عن إلفه وعادته، والانخراط في سلك الأتباع بعد أن كان متبوعاً، والتشييع بعد أن كان مشيِّعاً، وتحكيم الغير في ماله وتسليطه إياه على جملة أحواله، والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله: والحمية حميتهم، والهمم الكبيرة هممهم، وقد بذلوا له السيف، وأخطروا بنفوسهم وأموالهم، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو ينشغل به خاطر، وهو لسانهم الذي يتخاطبون. . . . مع أن الله قد أخبر عنهم أنهم: ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58] و﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: 97] [1]، ويقول الرافعي: «كل شيء إنما صحته وتمامه في معارضته و«نقده»، إذ أن المعارضة نصف الحق، وإن هي لم تكن حقاً لأنها تبينه وتجلوه وتقطع عنه الألسنة، وتنفي عنه الظنة، ومن هنا يظهر لك السر المعجز الغريب البالغ منتهى «الدقة» في القرآن الكريم، فإن هذا الكتاب دون الكتب السماوية والأرضية، هو وحده الذي انفرد بتحدي الخلق، وإثبات هذا التحدي فيه؛ وبذلك قرر أسمى قواعد الخلق الإنساني، ووضع الأساس الدستوري الحر لإيجاد المعارضة وحمايتها، وأقام البرهان لمن آمنوا على من كفروا. وكان العجز حجة دامغة معها من القوة كالذي مع الحجة الأخرى في إعجازه»[2].

11 - الإعجاز العلمي العام:

أ - كشف غيب الماضي:

لقد ذكر القرآن بعض الأحداث القصصية الماضية بالأرقام والإحصائيات مع ذكر الملابسات التي رافقت ظهور تلك الأحداث، فمن أين له ذلك؟ من

(1) إعجاز القرآن، للباقلاني، ج1، ص: 26 - 28.
(2) إعجاز القرآن، للرافعي، ص: 272.

أين له أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لبث في قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14] ويطابق ذلك عمره في سفر التكوين، من أين له أن أهل الكهف لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً، ويطابق ذلك المعلومات الكتابية التي ذكرت أن أهل الكهف بقوا «ثلاثمائة سنة» في الكهف؟. . . وحين احتج المستشرقون ظانين أنهم عثروا على نقطة ضعف ممثلة في السنوات التسع الزائدة على الثلاثمائة، جاء العلم الفلكي الحديث ليبرهن على صدق حساب القرآن الذي ذكر السنة القمرية في حساباته لاستعمال العرب لها؛ إذ كانت السنون التسع المضافة هي الفرق الحسابي الصواب بين مجمل السنوات الشمسية والقمرية!

كيف علم القرآن قصة الطوفان، وموقع حدوثه، وملابساته، مع أن ذلك لم يثبت تاريخياً إلا بعد الحفريات الأثرية في منطقة «أور»؛ إذ كشفت على عمق كبير عوائد القوم الذين غرقوا بالطوفان مغطاة بطبقات كثيفة من طمى الطوفان الهائل وبعد العثور على الألواح الاثني عشر التي سجل فيها الناجون من أهل المنطقة المغروقة قصة الطوفان موافقة لخبر القرآن، إذ أكدت الألواح غرق سكان المنطقة باستثناء رجل تقي بنى سفينة وأخذ معه فيها أفراد عائلته وبعض الحيوانات والدواب[1]؟.

ترى من أين جاء القرآن بهذه الأخبار الصادقة؟ إنّ محمداً ﷺ لم يعايش صانعي الأخبار ليكتب عنهم هذه الملاحظات الحق والأوصاف الصادقة، إن ذلك ينفيه الواقع التاريخي إذ لاشك في مكان ولادة محمد ﷺ، وعمره، ومكان بعثته، ووفاته، كما يعجز أي إنسان أينما ولد وكم كان عمره أن يقص

(1) وردت هذه المعلومات في كتاب (الأرض التي نعيش عليها)، تأليف: روث مور، ترجمة إسماعيل حقي، ص: 26 - 35، نقلها عفيف عبد الفتاح طبارة في كتابه (مع الأنبياء في القرآن الكريم)، ص: 74.

ويؤرخ للدنيا كلها ويغطي أخبار العالم جميعه ثم لا يجانب الصدق فيما ذكر ولو شيئًا قليلاً، خصوصاً فيما حدث قبل ولادته وظهوره إلى الوجود، حتى فقد الناس ثقتهم بالتاريخ لكثرة التناقض والكذب التي أنبثت في صفحاته ثم دحضها العلم، وكشفها التحقيق، ونقضتها الدراسات الوثائقية، ويروى أن مؤرخاً إنكليزياً أحرق سائر ما كتبه في التاريخ، حين شب حريق في موقع قريب من داره، وخرج يستفسر ويسأل المارة والمشاهدين عن ملابسات شبوب النار في ذلك المكان عندما ذكرت له روايات مختلفة متباينة ومتناقضة منهم!، فإذا كانت المذكورات التاريخية تختلف وتتناقض وتتهافت في وصف الواقع المشهود فكيف بالماضي السحيق؟ وكيف بعصر لم تكن فيه حفريات وتنقيبات أثرية، ولم تتوفر عنه وثائق وسجلات رسمية! بلى،لقد عاش محمد ﷺ في زمان ومكان معينين، فكيف علم وعرف كل هذا؟ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى له: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: 44] وخاطبه كذلك: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]. وأما الزعم بأنه ﷺ قصّ ما أخبر به عن أهل الكتاب، ولكن محمداً ﷺ لم يجتمع بعلمائهم، عاش أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا يحقق، ولا يسأل ولا يستوثق،، مشغولاً برعي، ثم بتجارة، وأخيراً بخلوته وتعبده:

«أفي مثل هذا يقول الجاهلون أنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الشعور الجديد العلمي نتيجة «طبيعية» لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إذ لا مناص في قضية العقل أن يكون لهذا الانتقال الفطري سر آخر يلتمس خارجاً عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة»[1].

(1) النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز، ص: 31.

ب - تبيان غيب الحاضر والمستقبل:

إن ساحة الغيب غير الشهادة، وإن عالم الشهادة ليضل فيها الظن، وتختلف عنه الحسابات، وتتناقض الآراء والوجهات، فكيف بالغيب الذي يعجز عن العلم بسره وخافيه المستتر الإنسان بحدسه؟ ولقد ذكر في حديث أنه ﷺ لا يحيط بالسر النفسي للإنسان الذي يغيب عن الرؤية حيث روي أنه قال: «**إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو يتركها**»[1].

فبالنسبة لعالم الغيب الموجود حالياً، فإن علم الناس عاجز عن رصد كثير منه بوسيلة عصره المحدودة، ومهما كانت الفطرة سليمة والعقل مستعملاً فليس بوسعه إلا أن يثبت الحق في الإيمان بخالق للسمٰوات والأرض والحياة والإنسان، أما ما وراء ذلك أو غير ذلك فإما أن ينكره جهلاً وغروراً، وإما أن يلزم الصمت في تفسيره ووصفه تواضعاً وعلماً، أما أن يأتي رجل معروف بالصدق، موصوف باستواء العقل، سديد التصرف في سائر أمور الحياة، بل ممتاز التصرف، بكتاب يبين لنا فيه عالم الغيب بما فيه من الخلق غير المنظور كالجن والملائكة، والمشاهد التي يحتويها، كالجنة ونعيمها، والنار وعذابها، بل حتى عدد ملائكة النار ومهامهم، وأعمال الشياطين وتكوينهم، . . . إلخ، ثم تتوافق تلك المعلومات مع تماثلها مع ما بينه غيره من «الأنبياء» عليهم السلام قبل مئات السنين وآلافها، في بلاد غير بلاده، وبلسان ولغات غير لغته، وحيث لا صلة بينه وبينهم، ولا شبهة في وجود تلك الصلة، ولا شك في بعده العلمي عن ورثة أولئك «الأنبياء» عليهم السلام من العلماء. . : «فهؤلاء قوم محمد ﷺ

---

(1) رواه الشيخان واللفظ للبخاري عن أم سلمة، كتاب المظالم، باب: إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه برقم: 2458، ومسلم برقم: 1713.

كانوا أحرص الناس على خصومته، وأدرى الناس بسفراته ورحلاته، وأحصاهم لحركاته وسكناته، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره، فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً انفضت فيها سوق الحوادث، وجفت الأقلام، وطويت الصحف، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قمامات التاريخ، وفي الناحية التي أنف قومه أن ينبشوها»[1].

أما أن يأتي ذلك الرجل - وهو محمد ﷺ - بمثل ذلك الكتاب الذي ذكرت فيه أمور من غيب عالم الغيب في الحاضر والمستقبل، فلا بد أن يكون ذلك الكتاب معجزاً أي أنه: فصلت.

وكأمثلة على ذكر القرآن لأمور غيب الحاضر والمستقبل:

1 - في شأن النبي ﷺ ومستقبله نزل قول الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: 67]، وقد استجاب النبي ﷺ سراعاً لهذا التأمين على حياته فصرف تباعاً حراسه، فقد أمن رغم الكيد الكبير ومحاولات القتل والاغتيال المتلاحقة، روى أبو سعيد الخدري هذا الحديث قال: «كان النبي ﷺ يُحرس بالليل، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: «**يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله**»[2] وعاش محمد ﷺ رغم كل العداء وألوان البلاء!.. فكيف يعلم أحد له مثل أولئك الأعداء وغيرهم أنه سيبقى سالماً؟.. وهل يستطيع أحد أن يتنبأ بالمستقبل الذي هو غيب؟.

2 - في شأن الرسالة قال القرآن: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] وحفظ القرآن من دون كل الكتب التاريخية، وسلم من سائر

(1) النبأ العظيم، ص: 58.
(2) حديث حسن، حسَّنه الحافظ وصححه الحاكم، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة. برقم: 3046.

محاولات التحريف والنقصان، لا نقول نحن ذلك فقط إنما يؤكده المختصون من المستشرقين.

3 - نبوءة القرآن في الأخبار العالمية، ذكر في القرآن ما يلي: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم: 1-4].

وقد كانت دولة الروم أثناء تنزيل هذه الآية مغلوبة مهزومة واهية، لا أمل في نهضتها بالرؤية المادية لأسباب النصر والغلب، ولكن القرآن أخبر المؤمنين بنبأ انتصارها الآتي من الغيب، ووقّت أمد تحقق ذلك النصر ببضع سنين، كما أقرن نصر الروم على الفرس المشركين بنصر المؤمنين على مشركي مكة فقال: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الروم: 4] أي سوف يتزامن النصران، ويتعاصر انتصار الفئتين المؤمنتين على أعداء الله المشركين، ترى هل تحققت النبوءة؟ الجواب: بلى، ولو لم يكن ذلك لكان غير ما كان، وانفضت الجموع المتبعة لهدى القرآن.

4 - مصير بعضهم كان في معسكر العداء والمعارضة: ذكرت في القرآن هذه الآية: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم: 16] وقد تنزلت في الوليد بن المغيرة الذي كان يؤذي الرسول ﷺ ويعارضه، وتفسير الآية: أن الله تعالى أوعد هذا الرجل بأن يجعل على أنفه علامة ثابتة دائمة يعرف بها صدق القرآن ونبوة محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وثبت الحق، وصدق الوعيد، وضرب الوليد بضربة سيف على أنفه في معركة بدر، فصارت سمة وعلامة يُعرف بها.. وإذا كنت لا تطمئن لكل روايات السيرة، فلا يمكن أن تجادل أن سورة في القرآن تسمى سورة اللهب: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ [المسد: 1-5]، وقد تنزلت هذه السورة في «أبي

لهب» عم النبي ﷺ في مكة لتبين مصيره في الآخرة، وهو حي في زمن ومكان تنزل السورة، فمن علَّم محمداً ﷺ أن أبا لهب لا يؤمن، ومن أكّد له أنه سيستمر على كفره حتى يزعم أحد أنه هو الذي كتب هذا الوعيد؟ وماذا لو آمن وفي الوقت فسحة، وفي حياته امتداد، وقد آمن له أشباه ونظائر في درجة الكفر والإنكار كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبو سفيان بن الحارث، وغيرهما من الذين بالغوا في الإصرار على القضاء على الإسلام ثم آمنوا به؟ ماذا ستقول المعارضة حينذاك؟ وكيف كان يواجه النبي ﷺ ذلك الموقف العصيب؟ السورة الموسومة ثابتة في القرآن فلم يجادل في ذلك المعارضة، ولم يشك المتابعون والموالون؛ وبما أن القرآن كتاب الله سبحانه فلا تجد فيه اختلافاً، ولو لم يكن كذلك وأقصيت السورة في حالة إسلامه المحتملة لكان الشك، إذ كيف يدخل رجل مؤمن النار مع أن الإسلام يلغي شريط عمل الإنسان قبل إيمانه ويعفيه من الحساب والعقاب؟، والنبي ﷺ روي عنه أنه قال: «**الإسلام يهدم ما كان قبله**»[1] وكل تابعيه كانوا من ذوي الماضي في الكفر إلا من لم يبلغ الحلم ولم يجر عليه القلم! بغير استثناء «أبي لهب» من مغفرة الله سبحانه إذا آمن، فلابد أن يكون القرآن وحي الله سبحانه عالم الغيب والشهادة الذي يعلم أن هذا الرجل لا يؤمن ولو مستقبلاً.

ج - الكشوف العلمية:

الموسوعة العلمية، أو دائرة معارف العصر، فيها الكثير مما عرفه وعلمه الإنسان، ولكن ليس فيها ما يسبق العصر ومعرفته وعلمه بدون بحث وجهد علمي وآلي، والقرآن كتاب للإيمان يريد به منزله أن يؤمن الإنسان بأن لهذا الملكوت الكبير رباً، وإنّ لما يحويه من صور الحياة المتجددة ومشاهد الخلق خالقاً عالماً بما خلق، لذا فإن هذا الكتاب فيه في سائر المجالات الكونية

(1) تلخيص صحيح الإمام مسلم للقرطبي، ج 1، ص: 86.

والإنسانية والحياتية من الآيات ما يستجيب لها أصحاب الفطرة السليمة؛ إذ يرون فيها توافقاً مع مداركهم البصرية، وتوجهاتهم النفسية، ودوافعهم الفطرية، ونزعاتهم الخيرية، وما ثبت لديهم بوسيلتهم العصرية من اليقينيات العلمية، وبما أن القرآن كتاب الله سبحانه الذي يحيط علمه بالماضي والحاضر والمستقبل، فإن فيه آيات لا يظهر تأويلها التفصيلي إلا عبر مراحل الزمن وحلقاته المتطورة، تهدي كل حيران، مناسبة لتقدم العلم وتفتح العقل في كل عصر، فلا يزالون يرون في هذا الكتاب هدىً ونوراً لحاجتهم، ولا يزالون يتيقنون أن هذا الكتاب لا يمكن أن يوحي به إلا الله سبحانه الذي وسع علمه كل شيء. وبذلك تحقق المعجزة الدائمة حكمتها في هدى القرون البشرية المتقادمة إلى بارئها مهما كثر علمها، وتوسعت آفاقها، وتكاثرت خبراتها... ومن هنا نفهم الحكمة في أن النبي ﷺ لم يفسر الآيات العلمية من القرآن إلا قليلاً كالمعراج، وفيما يتعلق بعلم الأحكام الشرعية التي لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة، بينما ترك الآيات الكونية والعلمية مجملة، ذلك لأنه ﷺ لو فسر القرآن كله وفق المعطيات العلمية المعاصرة له ولأصحابه، أو بما يفقهونه بمداركهم ودرجة تفتح آفاقهم العلمية، لتشكل القرآن وفق شكل تفسيري وتأويلي محدد، وكف عن العطاء والإعجاز لأن تفسيره لا يتحمل المعارضة، ولكن القرآن «لا تفنى عجائبه»[1] ليبقى الإعجاز أبد الدهر: «فكأن النبوة في هذا الكتاب متجددة أبداً يلتقي بروحها كل من «يفقه» دقائقه وأسراره»[2]. وإذا ما عملنا بأن العلم المادي ثمرة نشاط أجهزة العلم ووظائف أعضائه كالسمع والبصر والفؤاد والعقل، وحيث لم توجد في عصر

(1) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، رقم الحديث في الكتاب المصدر: 3152، للتحقق راجع طبعة دار الفكر بتحقيق عبد الله درويش المجلد/ 2، الصفحة: 415.

(2) إعجاز القرآن للرافعي، ص: 12.

obeikandl.com

محمد ﷺ أجهزة علمية، ولا مراكز بحث، ولا أجهزة رصد، ولا آلات مقربة أو مكبرة، ولا دراسات علمية متخصصة، ولا وسائل مادية لاستخلاص العلم من حصيلة التجارب الإنسانية، فإن إنباء القرآن بأمور علمية لم يتوصل إليها العلم إلا في أيامنا هذه، في القرن الرابع والخامس عشر الهجري، العشرين والواحد والعشرين الميلادي، دون أن تذكر قبلها في كتاب، أو تحقق في مراكز علمية، بل دون أن تخطر على العقل البشري، وإن خطر شيء لم تكن سوى رفرفة خيال وسبحات أحلام لا رصيد لها من الواقع العلمي والحق المثبت، إن ذلك لمن البراهين التي لا شك فيها على أن هذا القرآن من عند الله سبحانه. ولذلك يقول: «موريس بوكاي» في كتابه: «دراسة الكتب» المقدسة «في ضوء المعارف الحديثة» - ويضم هذا الكتاب أمثلة كثيرة على هذه الموضوعات التي تتطابق مع الحق العلمي المكتشف في العصر الحديث سواء عن الإنسان، أو السماء والأرض، أو الحياة - يقول: «لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة، في البداية فلم أكن أعتقد قط أنّ بإمكاني اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة وذلك في «نص» كُتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام!!. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من حكم مسبق وبموضوعية تامة. . . . لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات، وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يكوِّن عنها أدنى فكرة»[1].

(1) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص: 144.

ونذكر فيما يلي أمثلة على ذلك من باب: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: 260]، لتقوم الحجة على المشتبهين، والظانين بالله ظن السوء، والذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 91].

obeikandl.com

القرآن وعلم الإنسان

1 - خلق الجنين:

ذكرت هذه الآية الكريمة في القرآن حول خلق الإنسان:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12-14]، ويأتي الطب بعد تقدم أبحاثه وابتكار الأجهزة العلمية الدقيقة المساعدة له ذلك التقدم أثبت لنا نفس المراحل في تكون الجنين الإنساني: ماء - دم جامد - مضغة - تكون الهيكل العظمي - تكون الغطاء اللحمي - الحياة. ولذلك يقول الطبيب الجراح الفرنسي «بوكاي»، وقد أعجبه إعجاز القرآن في هذه المسألة: «لكي يفهم الإنسان المعاصر المسائل المتصلة بالبناء التناسلي المعقد كان عليه أن يعرف علم التشريح، وأن يكتشف المجهر «المكروسكوب»، وأن يشهد ميلاد العلوم الأساسية التي تزود منها علم وظائف الأعضاء، وعلم الأجنة، وفن التوليد. . . إلخ، إلا أن الأمر يختلف بالقياس إلى القرآن الذي يذكر في عدد من آياته أجهزة يعينها بكل دقة، ويتناول مراحل التناسل فيحددها بوضوح، فلا يقدم لقارئه مسألة واحدة يشوبها ولو ذرة من خطأ»[1].

2 - رضاعة الوليد:

ذكرت هذه الآية في القرآن الكريم: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ

(1) مجلة آفاق عربية، عدد 1، سنة 1977، ترجمة الأستاذ محمد العربي الخطابي.

obeikandi.com

لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [البقرة: 233] أي يتحتم على الوالدة أن ترضع وليدها سنتين كاملتين إذا أرادت أن ينشأ رضيعها نشأة نفسية وجسمية سليمة. . . . وأخيراً يتوصل الطب والكمياء وعلم النفس إلى هذا الحق، فمن الناحية الصحية يظهر التحليل أن حليب الأم بما يحتوي عليه من المواد الغذائية والعناصر الضرورية هو أفضل من سائر أنواع الحليب المصنع، حتى اضطرت معامل الحليب الصناعي إلى إعلان هذا الأمر. . أما من الناحية النفسية فيقول علماء النفس في القرن العشرين: «بينت البحوث التي أجريت في ميدان علم النفس لأكثر من عشرين عاماً الآثار العكسية للحرمان من حنان الأم، ومن ذلك أن أطفال المؤسسات يتميزون بالتخلف العقلي والانفعالي، وأن هذا الطابع «اللاوجداني» يؤدي بعد ذلك إلى الجناح»[1] . . و«بينت» الدراسات التي أجراها «بولبي» وزملاؤه أن الطفل المحروم من الأم يكون بعد ذلك أشد سوءاً في توافقه من الأطفال الذين ينشأون نشأة عادية»[2].

شبهات..

بعضهم تعجب من كون القرآن مفصلاً ومجزءاً «منجماً» لمقاربة القرآن بالكتب المنزلة الأخرى التي نزلت كلاً لا على مكث ومنزلاً، فليس هذا التنزيل إلا للإصلاح المتدرج وتكوين الإيمان والتقوى مع الوقت وتبديل الجاهلية والشرك. . وليس هو تطوراً فكرياً لرسول الله ﷺ . . وكذلك ظاهرة تصريف الآيات لزيادة الإيمان وزيادة التأثير، وهكذا ذكرت قصة موسى عليه السلام عدة مرات حسب ما يراد التأثير بها في المخاطب. . أما ترك بعض أمور

(1) آفاق جديدة في علم النفس، أشرف على تأليفه ب. م فوس، ص: 269.
(2) نفس المرجع، ص: 269.

القصص للتصور فذلك من حكمة القرآن الذي لا يحرم التصور من العمل فيما لا يخالف السياق.. كما أن القرآن لم يقسم إلى مواضيع بل تتداخل فيه كل الأمور حتى لا يحدث السأم لدى القارىء، فهو خطاب موجه إلى الإنسان بعقله وشعوره وفكره معاً.. وإذا ما أراد أحد أن يفسره ويصيب في تفسيره فلا بد أن يصدق بأنه منزل من الله.

obeikandl.com